

Dirassat & Abhath
The Arabic Journal of Human
and Social Sciences



مجلة دراسات وأبحاث
المجلة العربية في العلوم الإنسانية
والاجتماعية

EISSN: 2253-0363
ISSN : 1112-9751

الخطاب النحوي العربي بين تعالق العلوم في التصور التراثي العربي
واللسانيات المعاصرة

**The Arabic grammatical discourse between the interrelationships of sciences
in the Arab heritage perception
And contemporary linguistics**

عريب عمر Omar Arib

طالب دكتوراه، جامعة مولود معمري تيزي وزو، كلية اللغات والآداب، قسم اللغة العربية وآدابها،

مخبر الممارسات اللغوية بالجزائر

PhD student,

Mouloud Mammeri University of Tizi Ouzou, Faculty of Languages and Arts, Department of
Arabic Language and Literature, Laboratory of Linguistic Practices in Algeria

omar.arib@fll.ummto.dz

تاريخ القبول : 2024/12/26

تاريخ الاستلام: 2024/09/28

الملخص:

تروم هذه الورقة البحثية الوقوف عند الاطار المعرفي الاستمولوجي العام للنحو العربي، الذي تشكّل عناصره مرجعيةً نظريةً تروم فهم الآليات العقلية واللغوية التي بُني عليها الخطاب النحوي العربي، كما أننا وقفنا عند اللغة النحوية العربية وبيان أصالتها، ودور مرجعياته المعرفية في بناء المعرفة اللغوية في اللسانيات العربية في ظلّ التحوّل المعرفي الذي برز في اللسانيات الغربية الحديثة والمعاصرة، وخلصنا إلى أنّه لا يمكن تجاوز الحركية العقلانية والفكرية التي نمت في فلكها الخطاب النحو العربي في مراحلها المختلفة، كما أنّ صبر أغوارها يحيلنا إلى فهم أعمق للنحو العربي حتى نتمكن من بناء بناء يواكب التطور المعرفي الحاصل في اللسانيات الحديثة والمعاصرة.

الكلمات المفتاحية: الخطاب النحوي، المعرفة اللغوية، الاستمولوجيا، اللغة النحوية، اللسانيات.

Abstract:

This research paper aims to examine the general cognitive framework of Arabic grammar, whose elements constitute a theoretical reference aimed at understanding the mental and linguistic mechanisms on which the Arabic grammatical discourse is built. We also stopped at the Arabic grammatical language and a statement of its originality, and the role of its cognitive references in building linguistic knowledge in Arabic linguistics. In light of the cognitive shift that has emerged in modern and contemporary Western linguistics We concluded that it is not possible to ignore the rational and intellectual movement within which the Arabic grammar discourse has grown in its various stages, and that patience in its depths leads us to a deeper understanding of Arabic grammar so that we can build it in a structure that keeps pace with the cognitive development taking place in modern and contemporary linguistics.

Keywords: Linguistic discourse, linguistic knowledge, epistemology, grammatical language, linguistics.

مقدمة:

إنَّ دراسة قضايا اللُّغة النُّحوية في بعدها الاستيمولوجي يسمح بإنتاج خطاب لغويٍّ حول طبيعة اللغة في بناء معرفة النحوية، والبحث والتَّحري عن الكيفيات اللُّغوية العقلية التي يعتمدها العلم حين يتحدث عن موضوع ما بهدف ضبطه الأصلي والمنطقي وقيمته ومداه الموضوعي، ولهذا اعتبرت القراءة الاستيمولوجية وسيلة لمعرفة العلاقة بين انتظام مفاهيم المعرفة واللغة المعتبرة في التَّعبير عنها، إنَّ اللُّغة النُّحوية بمصطلحاتها ومفاهيمها وحدودها وقواعدها اللُّغوية والذهنية التي احتكم إليها النُّحاة في تشكيل هذه المجموع، قد انبنت على أسس منهجية أقلُّ ما يقال عنها أنَّها أصيلة وهذا عكس ما راج بأنَّ الدَّرس النُّحوي العربي قد بدا عليه غياب الدِّقة والوعي طيلة مراحلها المختلفة.

إشكالية البحث: لقد حاولنا الإنطلاق في بحثنا هذا من الإشكالية الآتية: كيف يمكن أن تكون القراءة الاستيمولوجية ضرورية وحتمية في معرفة الأصول التي انبنت عليها اللغة النحوية، ودورها في بناء معرفة حديثة في ظل التحولات المعرفية اللسانية المعاصرة؟ يشمل أهداف البحث ما يلي:

البحث في استيمولوجيا اللغة النحوية العربية، لمعرفة الآليات العقلية الانتاجية، ودورها في بناء معرفة جديدة في البحث اللساني العربي الحديث.
المحور الأول: البحث في الأصول الاستيمولوجية للنحو العربي ضرورة لبناء المعرفة اللغوية:

لقد انبثقت اللسانيات المعاصرة من منظور الفحص الاستيمولوجي الأصولي، واستوت من خلال التَّركيز على نقطتين أساسيتين تتمثل الأولى في دراسة اللُّغة من حيث هي ظاهرة بشرية عامة، إذ نجد أنَّ اللسانيين قاموا بدراسة اللُّغات وتشريحها دون

النَّظر إلى الانتماء، أمَّا الثَّانية فهي دراسة تلك اللُّغات دراسةً علميةً موضوعية ونبذ المطارحات الفيلولوجية السَّابقة، إنَّ هذا الانتقال لم يوجد من العدم وإنما كانت له صلة بما سبق ف«الفكر الغربي قد شقَّ طريقه من المعاصرة إلى الحداثة دون قفز مولد للقطيعة... حيث كان الصِّراع المبهجي خصيباً إلى حدِّ الطَّفرة أحياناً»¹ فكان نتيجة لذلك أنَّها وصلت لحدِّ العلم الشُّبه متكامل رغم قصر المسار الزمَّني الذي قطعته بدءاً من رائدها دو سوسير إلى يومنا هذا، فالترَّكيمات المعرفية اللسانية، والبحوث اللغوية المتعدِّدة تسنى لها خلق بنوك مصطلحية كبيرة وتأسيس قواميس لسانية متخصصة.

إنَّ دراسة الخطاب اللساني العربي ببعده الاستيمولوجي، يسمح بإنتاج خطابٍ لغويٍّ حول طبيعة اللُّغة التي استعملها اللُّغويون العرب في بناء المعرفة اللُّغوية، وبما أنَّ الاستيمولوجيا في أحد معانيها أنها تدرس المفاهيم وبنياتها وكذا الطريقة التي تنتظم فيها المعارف، فالإستيمولوجيا بهذا المعنى لا ترصد موضوعات العلوم، وإنما تتحرى الكيفيات اللُّغوية والعقلية التي يعتمدها العلم حين يتحدث عن موضوع ما، بهدف ضبط أصلها المنطقي، وقيمتها ومداه الموضوعي². ومن هذا المنطلق اعتبرت دراسة لغات العلوم أمراً مهماً في مجال الدَّرس الاستيمولوجي، وأنَّ علاقة نظام تتابع مفاهيم المعرفة وانتظامها مع اللُّغة التي تُستعمل في التَّعبير عنها وصفاً وتحليلاً علاقةً وطيدة، فاللُّغة هي الوسيلة الوحيدة التي تمكَّننا من تحليل المعارف والعلوم، ودراستها دراسةً علميةً موضوعية هي ضرورة لتلافي الوقوع في الخطأ، واعتماد النتائج العلمية الموضوعية «فأيُّ خطأ في اللُّغة يؤدي بالضرورة إلى خللٍ في الانتظام»³.

التراثي و بين الدرس اللساني الحديث إدعى بعضهم أنَّ البحث اللغوي التراثي يفتقر إلى منهج واضح دقيق، إمَّا على صعيد لغته، و إمَّا على صعيد مضمونه، وكأنَّ المعرفة اللغوية التراثية قد وُجِّهت نحو غاياتٍ مخصوصة، ولم يكن لها حديثٌ عن الكلام بِعَدِهِ ضمن المعرفة العامة.

المحور الثاني: اعتراض بعض النُّحاة العرب المحدثون على المصطلحات البلاغية والمنطقية في النُّحو العربي:

لا يمكن أن نجعل التراث اللغوي العربي وراء ظهورنا عندما ننقل المعرفة العلمية الغربية، فضرورة وصل المنقول بأصل من أصول التراث واجب، لا يمكن الخروج عنه، وهذا ما نادى به الاتجاه الذي يقرب وجود لغة علمية، وكذا سبق اللغويون العرب في تحليلاتهم للغة مقارنة بما توصلت إليه اللسانيات الحديثة والمعاصرة، فكما هو معلوم أنَّ التراث اللغوي العربي قد أخذ على عاتقه مبدأ التَّكامل.

إنَّ عرض مسألة نشأة النُّحو العربي و القراءات والآراء والنتائج المتباينة التي عرضت بعد هذا البحث نجد أنَّ أغلبها قد ركَّزت بشكلٍ مباشرٍ على البحث عن أصل المصطلحات والمفاهيم والحدود والتصنيفات النُّحوية، وأنَّ أغلب الباحثين اللغويين العرب القدامى أو المحدثين اتَّفَقوا في مجمل الأمر على مبدأ الأصالة في الفكر النُّحوي بصفة عامة، والأصالة هنا وإن لم تشمل جميع قضايا النُّحو العربي فإن التركيز كان على طائفة من الأصول التي استحكمت في بناء هذا الفكر، ومن تلك الأصول: « القياس وأصل العلة، أو عن سلسلة من المفاهيم والتقسيمات التي تعدُّ المنطلق الأساس للتحليل النُّحوي نحو: تقسيم الكلام إلى اسمٍ وفعلٍ وحرفٍ وكذا مفهوم الإسناد العالمي»⁵.

و للوصول إلى نتائج في الميدان اللساني العلمي من خلال تحليل الظواهر اللغوية والظواهر المفهومية للغة الخطاب اللساني العربي من حيث اعتبارها لغةً علميةً تحمل في طياتها مضامين فكرية، علينا أولاً البحث في أصولها الاستمولوجية، من تلك الأصول: النُّحو، والبلاغة، و الفقه وأصوله، الصَّوتيات، و الدَّلالة، و هذا يعني دراسة ما هو ديني، وما هو لغوي، و ما هو اجتماعي، و الذي يعطينا تفاعلاً بين اللُّغة العربية و علوم التراث الأخرى، الذي جعل هذا الارتباط قائماً هو ذلك التفاعل بينها، إذ لا تخرُج اللُّغة العربية عن القواعد اللُّغوية و العقديّة والفكرية التي تضبط مجال إنشاء المعرفة الإسلامية العربية.

إنَّ الحديث عن البعد الاستمولوجي للخطاب اللساني العربي يسمح لنا من معرفة طرق نشأته، فالمعلوم أنَّ « العلوم و لغاتها موصولة بمقتضياتها التاريخية وصلاً، نتیجتُهُ المباشرة نفي وحدة المنهج و وحدة الدِّراسة»⁴، فبعض اللُّغات وقضاياها المدروسة بشكلٍ علميٍّ وكذا إشكالاتها، لها منهجية و إجراءات نظرية في زمن ما، قد تختلف وتتخذ أشكالاً أخرى في زمنٍ آخر، حيث تتبدل البنيات المعرفية، و حتى بعض الأصول المولدة تتبدل، بحكم أنَّ المناخ الفكري يلعب دوره في تأسيس نظر جديد، الأمر الذي يحيلنا إلى نفي وجود مسارٍ معرفيٍّ واحدٍ مستمرٍ يسير في خطٍ مستقيم.

إنَّ ربط الدِّراسات اللسانية العربية بأصولها يقي البحث فيها من الأخذ بالنظرة السطحية التي تسير نحو فصل اللُّغة العربية العلمية و مسالك بنائها، و طرق انتظامها عن واقعها و تاريخها، فمنطقي هنا أن نقول بأنَّ كل الإشكالات التي ستطرح انطلاقاً من هذه النظرة ستستمر، و يكون هذا عكس ما قيل بأنَّه إذا ما استعصت سبل التقريب بين الدرس اللغوي العربي

المحور الثالث: جولان المصطلح النحوي في اللغة العلمية التراثية:

لقد اهتمدى النحاة العرب القدامى في صناعة النحو مسلك من له معرفة عميقة بأصول اللغة العربية من الكلام إلى التجريد وصولاً إلى عده صناعة أو بنية ذات علاقات داخلية عضوية، ذلك أنهم وصلوا إلى بناء هيكل للنحو العربي وذلك بمنهج دقيق هو الاستدلال، « وقد تركز البحث عند مفكري العرب عند مقومات اللغة العربية بالنسبة إلى حيث يفترض اختباراً لو كان الانسان لم يكن معه بعده اللساني»⁶.

فلنتحدث الآن عن مصطلح الجولان المصطلح النحوي، باعتباره مسألة مهمة جداً لأنها تدور في فلك تفاعل علم النحو وغيره من لغات المعارف الأخرى، ففي المفاهيم النحوية استعملت مضامينها على أنها مسلمات يبرهن عليها حتى في علوم أخرى، لأن الفكر العربي الاسلامي لم يكن مخصوصاً منفرداً، بل كان هناك تفاعل قائم بين العلوم كلها، ولا يخفى أن هذا التفاعل له بالغ الأهمية في الصناعة النحوية يأخذون تقويماً إلى النظرة التكاملية بين كل القطاعات المعرفية التراثية الأصلية لغة ومضموناً، لأنه في الحقيقة لا تستطيع نفي الخاصية التكاملية أو التفاعلية من حيث إنها وجه من وجوه تشكّل هذه القطاعات و أساس من معتمدات بنائها.

وجولان المصطلح النحوي في اللغة العلمية التراثية دلالة على عدم الاستقرار و الثبات، وجولان المفهوم النحوي انتقاله من حقل إلى آخر تقلبته الحقول المختلفة، فمن خلال القراءة الاستمولوجية في المفاهيم النحوية العربية يظهر أن المفاهيم النحوية الرياضية مستقاة من مفاهيم علم آخر، نحو: مصطلح (التشاكل) (المجموعة) ومفهوم (السلسلة) وغيرهم، وأمّا مسألة جولان المفاهيم الرياضية في اللغة

اللسانية تحيلنا إلى مشكلة التعدد المفهومي للمصطلح الواحد، أو مشكل الانزياحات المفهومية لأننا نعرف بأن القليل ممن استقبل المفاهيم المنقولة من لغة حقل آخر يصعب على الذي يشتغل فيه التصريح على أنها مفاهيم دخيلة، وهذا الأمر يشوش بطبيعة الحال على بعض العلوم، فصار كل علم يأخذ المصطلح ويعطيه خصائص جديدة التي يتخذها في أغلب حالات الانتقال، كما أن جولان المفاهيم بكل مظهراتها لا يمكن أن يكون نتيجة حتمية للوعي تولد عنه كل من هم بالبحث عن أصل المفاهيم الحادثة في هذا الحقل أو ذاك، لأن المفاهيم تدخل ضمن الآليات الانتاجية التي تختص بكونها تقبل أكثر من غيرها، و التنقل من حقل فكري إلى آخر وتحوال بين مختلف حقول المعرفة وأصناف العلوم»⁷.

إن تعالق العلوم في إطار التصور العربي التراثي يجعلنا لا نستغرب أن تنتقل المفاهيم النحوية إلى اللغة الكلامية أو اللغة الأصولية أو اللغة الفقهية وغيرهما، وكذا انتقال مفاهيم هذه اللغة النحوية، إن هذه النظرة الكلية في التكامل بين علوم اللغة العربية والعلوم الأخرى وهذا واضح وجلي في الكتب التراثية، « فتأثير علم الكلام في التراث النحوي يلحظه في كلا المجالين الرئيسيين وهما: الأصول العامة والقواعد الجزئية»⁸.

، فلنأخذ على أساس أن علم الكلام له دور بارز في بلورة المفاهيم المصطلحية لنحو العربي ذلك أن « علم الكلام هو العلم الذي أظهر قدرةً تداخليةً قل نظيرها في الممارسة التراثية، فقد تداخل مع العلوم الأصلية، مثل الفقه، والتصوف و البلاغة، واللغة و علم النحو و علم الأصول»⁹.

المحور الرابع: مقياس الدلالة الأحادية للمصطلح النحوي العربي:

والتكامل الذي انتهجه الدرس اللغوي العربي فإنه وفي خضم اللغة العلمية يتم اقصاص كل الظواهر المعجمية الدلالية التي تعرفها هذه اللغة من مشتركٍ لفظي وترادف، لتؤكد في مقابل ذلك سلامة مقياس الدلالة الأحادية.

و إذا نظرنا إلى هذا الأمر من منظور المصطلحية العربية الحديثة فإننا نجد عكس الثبات تمامًا، فالدلالة الأحادية للمصطلح اللغوي لم تعرف استقرارًا أبدًا خاصة المصطلح المترجم، باستثناء المصطلحات النحوية التراثية، وهذا ما ذكرناه آنفًا، لأن بناء المعرفة اللغوية يجب أن يتكأ على أصول الخطاب النحوي العربي، فبالرغم من الحركة المعرفية التي عرفتها الدراسات اللسانية الحديثة، وكذا الحركة الكبيرة في المصطلحية، إلا أن المصطلح النحوي العربي بقي يدافع عن وحدة المفهوم و وحدة المصطلح.

المحور الخامس: النحو العربي والتحول من النسقية إلى العرفانية:

في إطار إعادة النظر في مبادئ و فرضيات التي رسمها النحو التوليدي الرئيس الذي اعتبر أن التركيب هو الخاصية المميزة للغة، و المكون الذي يسبغ عليها طابع الابداعي، و الذي حظى بأعلى درجات التعقيد و التجريد، و أبعد ما سواه من الخصائص الأخرى، إذ جعلت « الاعتبارات التركيبية أساس صياغة المسائل المركزية للاكتساب و الفطرية و الاستدلال عليها، بينما أنيط بالصوتة والصرف، على أهميتهما دور ثانوي، و بما أن الدلالة لا يمكن ترميزها من خلال التركيب، فقد تركت للدلالين الصوريين الذين لا يهتمون في أغلبهم بالخاصية الذهنية للغة، وبمسألة الاكتساب»¹³.

إنَّ القفزة المعرفية التي شهدتها اللسانيات المعاصرة جعلت من التركيب في إطار فرضية التوازي

إنَّ مقياس الدلالة الأحادية الذي يقصد منه من خلال المنظور المنطقي الذي هيمن على المصطلحية الكلاسيكية: « عدم تخصيص المفهوم العلمي بأكثر من مصطلح واحد»¹⁰، و هو التعريف الذي تفيدته المنظمة العالمية للتوحيد المعيارى – إيزو- في تعريفها لهذا المقياس، فقد حُدِّدَ على النحو الآتي: « الدلالة الأحادية هي العلاقة بين تسمية ومفهوم، لا تعكس فيها التسمية إلا مفهوماً واحداً»¹¹، و نظرًا لأهمية هذا الموضوع في الخطاب النحوي العربي فقد أحدث انشقاقاً بين الذاكرين و المتحدثين عن خطائص اللغة العلمية و ضوابطها، فمنهم من قال أنَّ الحركة الكبيرة التي تعرفها الدلالة للغات الطبيعية تجعلها تعيث فساداً في الأرومة المصطلحية الأمر الذي جعل الكثيرين يعزفون عن استعمال هذا اللغة في بناء والبحث في المعرفة اللغوية.

كما أنَّه يوجد في المقابل فئة من اللسانيين لم تمنعها الحركة الدلالية للوحدات الطبيعية من الاحتفاظ بتلك المصطلحات أو ببعض المصطلحات شريطة أن تُعوَّض تلك الحركة بالاستقرار والثبات، و معلوم أنَّ الثبات في الاستعمالات من خلال محاربة التعدد الدلالي يحتاج إلى جهدٍ كبيرٍ، والعودة دوماً إلى الأصول و المرجعيات التي بُنيَ عليها ذلك العلم، والنحو العربي بما أنَّه يأخذ المركزية في البحث اللغوي العربي، فالاحتفاظ بمصطلحاته الأصيلة لهو قطب الرّحى التي تدور عليه بحوثه، و الوحدة المصطلحية: « أحاديه الدلالة في جوهرها، في حين أنَّ الكلمة بوصفها وحدة لغوية محكومٌ عليها بالتعددية الدلالية لأنها تُستدعى لتتكلف بالتعبير عن قيم دلالية مختلفة»¹².

إذا حكمنا على أنَّ النحو العربي كان يُدرّس بلغةٍ علميةٍ دقيقةٍ فإنَّه في المنطق المحض الذي تمت فيه معالجة علاقة المصطلحات النحوية بمفاهيمها وعلاقتها بالموضوعات المدروسة في إطار مبدأ الشمول

التي تتعرض لها « فالعمليات العصبية التي تتأثر بتنوعات الشبكة الاجتماعية التي تنتمي إليها وهو ما ينعكس عصبياً على درجة الانتباه والتعلم وعلى نحو خاص، فمن الرّاجح أنّه كلما كان المحتوى التعليمي ذا قيمة في الشبكة الاجتماعية للمتعلم كانت درجة انتباهه إليه ودافعيته لتعلمه أكبر»¹⁷.

العنوان الفرعي الثاني: بناء المعجم الذهني لدى

الطفل المتعلم من منظور اللسانيات العصبية:

إنّ من القضايا الأساسية التي في البحث اللساني العربي هي آلية التخزين المفرداتي، ولقد سار البحث في معرفة الطريقة التي تتشكّل بها المفاهيم، مفاهيم الأشياء، حيث اتفق مجموعة من اللسانيين المتخصصين في اللسانيات العصبية و على رأسهم نعوم تشومسكي على أنّ اللغات في حدّ ذاتها لا تتطوّر، وإنّ ما يتطوّر هو المقدرة اللغوية، و هي قدرة دماغية متميزة، لأنّها متطابقة مع أفراد الجنس البشري، يعني أنّ كل البشر لهم قابلية تعلم أي لغة من لغات العالم مهما كانت، لذلك وكما هو معروف أنّنا لو وضعنا طفلاً في بيئة اجتماعية معينة، فإنّه سيتعلم لغتهم، لأنّ المتعلم له استعداد ذهني مسبق، إذ إنّ هناك علاقة بين أجهزة عصبية في الدماغ أو الأبنية العصبية والبيئة الاجتماعية، ليصل إلى درجة بالنّماء الذهني ويمكن تمثيل ذلك بهذا المخطط:

الثلاثي (الصوتة\ التركيب\ الدلالة)، على أساس أنّه مجردّ مكوّن من مكونات اللّغة « التي يسهم كل واحد منها في ابداعية اللغة و تعقدها و طابعها المجرد... إنّ التّركيب يبقى مركزياً من النّاحية الجغرافية، باعتباره القناة الرئيسة الرابطة بين الدّلالة و الصوتة، لكنّه لم يعد مركزياً من الناحية التّصورية»¹⁴.

العنوان الفرعي الأول: اسهامات نظريات الوعي

عصبياً وبيولوجياً في الاكتساب اللّغوي:

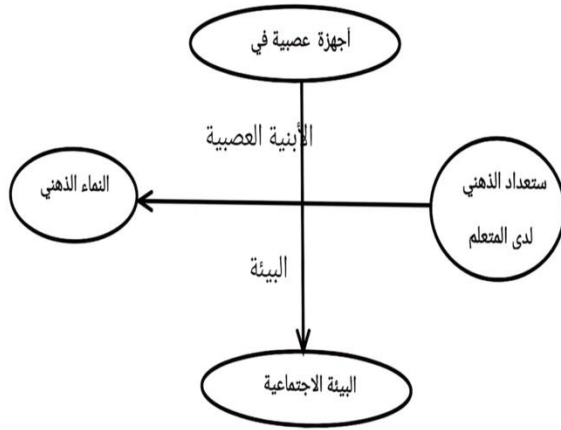
إن من أهم النقاط التي ركزت عليها اللسانيات في شقها التطبيقي، اهتمامها بمسألة الاكتساب اللغوي، أي كيف يكتسب الطفل اللغة؟، و عليه فالمقاربة العرفانية قدمت تفسيرات علمية، حاولت من خلال الوصول إلى نتائج علمية أكثر دقة، فآلية وعي الطفل باللغة و مقدرته على اكتسابها لم يتوقف على الدراسة الصورية المجردة إنما أوغل الباحثون في الدماغ البشري، عصبياً وبيولوجياً فكانت ظهور نظريات الوعي، حيث ذكروا أنّ « الوعي يبدأ مباشرة مع مراحل تعلم أيّ سلوك جديد، ومنها السلوك اللّغوي بالطبع، لأنّه السلوك الرئيسي بالنسبة للإنسان في فهم العالم والتفاعل معه، ثم ينسحب الوعي ويبدأ الدماغ في برمجة السلوك ألياً بعد ذلك»¹⁵، وهذه هي المرحلة التأسيسية حينما يكون الطفل جاهزاً لأن يتعلم اللغة التي يرغب في تعليمها، وفي تعليم السلوكات بصفة عامة، اللغوي وغير، وسميت هذه العملية بـ (الغرس المفاهيمي)¹⁶.

إنّ الوقوف عند العمليات العصبية التي لها دور بارز في اكتساب اللّغة من أجل تحقيق وإغناء الكفاية التفسيرية لعملية التّعلّم، إذ لا يمكن الوقوف عند هذا الحد فقط، بل لا بدّ من مراقبة العمليات الذهنية المسؤولة عن الاكتساب اللّغوي، في العمليات العصبية التي تتأثر بالتمثيلات البيئية

الاستعارات وأنظمة المزج التَّصوري، لدى مختلف الأجناس»¹⁹، إنَّ الطِّفْل الذي يكون في منطقة بعيدة عن محيطه الاجتماعي الذي ولد فيه، لا يمكنه مبدئياً أن يتعلَّم أيَّ لغة تلك لغات تلك المنطقة، ولكن مع مرور الوقت، يبدأ دماغه في بناء الأصوات الذَّهنية، ويكوِّن بذلك خبرةً إنسانيةً جديدة، من حيث المفاهيم والموجودات التي أمامه، وهذا يعني أنَّ «المفاهيم واحدة في الدِّماغ، و لكن الذي ينضمها هو التَّعابير الجديدة، والألفاظ المختلفة الجديدة حولها، بصورة أولهجة جديدة، بحيث تعبر عن الموحودات نفسها، و الأشياء عينها التي كنت تعبر عنها في نموذج لغتك الأصلية»²⁰، إنَّ حاجة الذَّهن التَّعبيرية، تتدخل في التَّصنيف المعجمي الذَّهني للمتعلم، وهذا ما يدخل في إطار ميلان العقل إلى اللَّعب بمفردات اللُّغة، لذلك نحدِّد إختلاف التَّعابير بين النَّاس، وإنَّ كان الموضوع المبحوث فيه واحد، ولو طلبنا من تلاميذ الصفِّ الخامس إنشاء تعبير كتابي يكون موضوعه وصف حديقة الحيوانات مثلاً، للاحظنا بأنَّ الأساليب التَّعبيرية تختلف من متعلِّم لآخر مع أنَّ السَّند واحد واللُّغة واحدة.

العنوان الفرعي الثالث: النَّحو الذَّهني العرفاني وتشكيل اللُّغة عصبياً:

لقد اعتمد العلم مساراً عقلياً مع بداية القرن التاسع عشر، و صار الذهن\الدماغ هو محل و موطن البحوث العلمية، و اللسانيات بما أنها تدرس الألسن البشرية، في بعدها الانساني و الاجتماعي، وطرق التواصل، و منشأ اللُّغة الانسانية، صار مرادُّ الأمر إلى معرفة الكيفية التي يشغل بها الدماغ، فالإنسان باعتباره يعيش في وسط بيئة اجتماعية تختلف من رقعة جغرافية لأخرى، بنى أنساقاً مختلفة للتواصل عن طريق الوسائط اللغوية و غير اللغوية،



إنَّ الطِّفْل حينما يأخذ المفاهيم الخاصة بالأشياء من البيئة الاجتماعية التي يعيش فيها، بحيث «إذا انتلفت الأصوات فإنَّ التَّأليف يستثير و يقدح في الذَّهن شرارة معنى أو مفهوم، وإذا ضمت أصوات إلى أخرى من غير أن يكون للتركيب وجود في المعجم الذَّهني، فإنَّ المعجم الذَّهني يهرع للتفتيش والبحث عن دلالة ذلك التركيب الصَّوتي، فإنَّ لم يجد أهمل المسألة، وإذا انتلفت الحروف المكتوبة رمز للتأليف الخطي إلى صورة صوتية، وينظر بعد ذلك، هل يوجد ذلك التَّأليف الخطي، مقابل أو نظير في عالم الأصوات، فإنَّ وُجد كان للحروف مرجع ثابت في الأصوات وإذا لم يوجد أهملت ذلك التَّأليف الخطي»¹⁸.

وهذا يعني أنَّ للحروف المكتوبة مرجعية ثابتة هي الأصوات، وللأصوات مرجعية ثابتة وهي مفاهيم الذَّهن والصُّورة العقلية الباطنية، والمفاهيم تترجم دلالة الواقع العيني، وكأننا نتحدث عن الدَّال والمدلول، فلكل شيء مرجعيته، و يمكن لأيِّ شخص تعلم لغة من اللُّغات الإنسانية، وأمَّا بالنسبة للقواعد اللُّغوية «فهي مجرد شكل من أشكال التَّدعيم الذَّهني، لأنَّ بنية اللُّغة البشرية واحدة في أدمغة البشر، وأنَّ مفاهيم العالم الخارجي واحدة، و الاختلاف فقط يمكن في

الكتابة العربية Graphology ؛ حيث إنّه ينسجم مع هذا التّصوّر لما قبل المفهومية (المقولات والخطاطات الذهنية) المسئولة عن التّواصل، التي تُحيل إليها العلامة الإعرابية، ومثل هذا الطرح أيضًا خاضع إلى المتغير الثقافي الذي ينتج عنه بالضرورة تغير تداولي ودلالي، الأمر الذي يؤثر برمته على اللغة، بما أنّها تخضع لتطور مستمر نحو التنميط، دلاليًا وتداوليًا، وبمراتب مختلفة. إنّ كل عمليات الإعراب Parsing ، كما يوضح تشومسكي، هي مجرد عمليات حوسبية ذهنية تخضع لقوانين ثابتة في الدّماغ، لكن طرق توليد الأبنية حرة ومتنوعة، وهنا يأتي دور البحث في النّظام البيولوجي الداخلي، لأنّه كما يرى هو المسئول عن كل عمليات التّركيب اللّساني، والإحالة الدّلالية، ومختلف أنماط الإخراج الصّوتي... إلخ»²².

ولقد أكد ابن جني أن الله سبحانه وتعالى قد علّم آدم عليه السلام المقدرة اللغوية، حيث فسر قوله تعالى و (علم آدم الأسماء كلها)، إذ يقول: «إلا أنّ أبا علي رحمه الله تعالى قال لي يوماً، هي من عند الله واحتج بقوله سبحانه، و (علم آدم الأسماء كلها)، وهذا يتناول موضوع الخلاف، وذلك أنه يجوز تأويله: أقدر آدم على أن واضع عليها»²³، فالمقدرة اللغوية هي نتاج ذهني، وعليه فـ «التّركيب الذهني للغة واحد عند الجميع؛ أعني طريقة التّكوين، لأنّ مركب القواعد Constituent موجود في كل الأدمغة وفق بنية الدّماغ الواحدة لدينا جميعاً، والبرنامج الجيني الواحد (الكود الكوني البيولوجي الجامع لمبادئ التكوين)، ولولا هذه الأرضية المشتركة من هذه الأكواد لما حدث التّواصل أصلاً بين المجموعات الإنسانية على تنوع أجناسها، فنحن مثلاً لن نستطيع يوماً أن نتواصل بنمط مشترك كما يحدث بيننا مع جنس القروء،

من أجل بناء جسر تواصل بشقيه الانتاجي و التلقي، حيث» اعتمد التّواصل اللّساني على الخبرة المكتسبة من التّجربة الجسدية، أو ما عرف حديثاً بجسدنة اللغة Linguistic Somatization ، وهو أحد أهم نتائج البحث في النّظرية العرفانية المعاصرة، وفي هذه الجسدنة يعتمد في التّواصل اللّساني من حيث الإنتاج والتلقي، على مقولة المفهومية Conceptual Categorization من جهة، والخطاطات الذهنية من جهة أخرى، وكلاهما نتاج التّجربة الجسدية بامتياز، ولعل ما قدّمته مدرسة الجشتالت الألمانية Gestalt يكشف - بوضوح مدى تأثر الدّهن بالجسد في عملية الإنتاج اللّساني عمومًا، وأبرز مظاهر هذه العملية نلاحظها في التّصور النحوي للعلامة الإعرابية بوصفها أحد أهم محاور النّحو العربي، فهذه العلامة تنتظمها أربع مقولات: الرفع والنصب والجزم والجر؛ ولا يغفل أحد عن أنّ حركة اللّسان هي التي أعطت لهذه العلامة هذه المقولة المفهومية، بل إنّ هذه المقولات الأربع تنتظم فيما بينها خطيًا Linear على مستوى التّركيب والتّعبير، من خلال خطاطة القوة، أو ما نعرفه في النّحو الكلاسيكي بمفهوم العامل، ولذا كان اقتراح التّحليل العلاقي للمنتوج الذهني المتمثل في التّركيب هو الأقرب إلى فهم روابط الخطاطات الذهنية المنشئة للتّركيب العربي على وجه الخصوص، ومثل هذا التّصوّر يمثل اتجاها عرفانيًا جليًا في النّظرية اللسانية المعاصرة»²¹.

«واللّافت هنا هو ارتباط العلامة الإعرابية بالمعنى ارتباطاً سيميائياً ينتج عنه الأثر الخطابي أو الفعل الخطابي في الحدث التّواصل اللّساني عمومًا، وبالتالي فإنّ الفعل الخطابي نفسه يعتمد على بنية ما قبل مفهومية لا يتحقق المعنى بدونها أبدًا ولا ينشأ الأثر الخطابي، ومثل هذا الطرح قد يُفسر علة انفصال الحركة عن الحرف في نظام

دورًا مهمًا في الاختيار، وهذا أمر معقد يحتاج إلى مصنفات علمية لتوضيحه»²⁵.

خاتمة:

بعد هذه الجولة البحثية التي ركزنا فيها النقاط التي تدخل في تكوين الخطاب النحوي العربي، التي تعد ضرورة لا يمكن أن ينفك عنها أي لساني، وهي معرفة الخلفيات المعرفية والابستمولوجية لمكونات للخطاب النحوي العربي، وقد خلصنا إلى بعض النتائج التي نذكرها:

- إن دراسة اللغة النحوية من خلال المنطلقات والأصول يسمح بإنتاج خطاب لغوي معاصر، ويسدد إلى حد بعيد ضبط اللساني في ظل التحول المعرفي الذي يشهده العلم.

- إن اعتراض بعض النُّحاة العرب المحدثين على بعض القواعد والأصول التي انبنى عليها النُّحو العربي كاعتراضهم عن المزاوجة بين المفاهيم البلاغية والمنطقية وإدراجها ضمن الأمور غير مقبولة في بناء النُّحو العربي، غير أن الذي يرد على هذا الادعاء هو أن علوم العربية قد تفاعلت -وهي ضرورة حتمية- مع العلوم الأخرى تفاعلاً سمح بانتقال جملة من المفاهيم إلى اللغة النُّحوية العربية كالمفاهيم الرياضية، فجولان المصطلحات و المفاهيم كانت ضرورة لا بُدَّ منها خاصة علوم الدين وذلك بالنظر إلى الارتباط الوثيق بين العلمين، ما يسمى بالتكامل المعرفي أو النظرة الشمولية.

- إن النظر في الآليات الانتاجية للتراث مقترن اقتراناً بالأخذ بالنظرة التكاملية في تقويمه، البحث في مميزات النظرة التكاملية، و حقيقتها في الممارسة التراثية، و النظر في كيفية أن هذه الودود التكاملية تستند في وجودها و رسوخها إلى الآليات الانتاجية التي تختص بها هذه الممارسة.

لعدم وجود مثل هذا الكود المشترك بين أدمغتنا وأدمغتهم فيما يخص الترميز والتواصل»²⁴.

«هذا المركب الذهني هو القالب الأساسي القابل للتشكُّل والتَّطور، توازياً مع مطاطية النسيج العصبي الحامل له أصلاً، مع ملاحظة أننا هنا نتحدث عن إشارات كهروكيميائية وليس قالباً فيزيقياً نبحت عنه داخل النسيج، يعمل هذا القالب مثلما يعمل الشريط الوراثي تماماً، المكوّن من وحدات الأحماض الأمينية Amino Acids، التي ترتبط من خلال سلاسل (الببتيد

[Peptide] الروابط الكيميائية التي تنشأ بين الأحماض الأمينية لتكوين البروتينات المختلفة، لتكوّن البروتين الخاص بكذا وكذا من صفات وخصائص إنسانية، وكلما تغير ترتيب الأحماض الأمينية تغير البروتين ليحدد صفة الطول أو لون الشعر... إلخ، أمّا على مستوى التركيب القاعدي، فإنّ تغيير الوحدات المنجزة من خلال استدعاءات المعجم الذهني هو ما يُولد الجمل بصورة لانهائية، فنحن جميعاً نستطيع التعبير عن مفهوم (أنا لا أحب التعصب) بمئات الألسن، ومن خلال آلاف التراكيب الاستعارية بواسطة التبادل والتوافيق Permutations Combinations في المعجم

الذهني، وتبعاً لما لدى كلّ منا من تصورات في دماغه، كل هذا أطلق عليه تشومسكي مصطلح: الكفاءة النُّحوية، وهي باختصار تتكون من روافد ثلاثة: قواعد التركيب الشجرية، و المعجم الذهني، و قانون الإدراج المعجمي اللازم لإنشاء التركيب، أمّا الأداء اللساني فلا يعكس هذه القدرة، فأنت لا يمكنك استخدام كل كلمات المعجم الذهني في حياتك لتطلقها في حديث ما، بسبب من ظروف سياسية أو اجتماعية... إلخ، لكن للانتقاء الذهني

- ³ المرجع نفسه، ص 10.
- ⁴ المرجع نفسه، ص 10.
- ⁵ المرجع نفسه، ص 323.
- ⁶ عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، ص 15.
- ⁷ طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الرباط، المغرب، الطبعة الثانية، 2007، ص 72.
- ⁸ علي أبو المكارم، تقويم النحو العربي، دار الثقافة، بيروت، لبنان، دون تاريخ، ص 239.
- ⁹ طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، ص 142.
- ¹⁰ زكريا أرسلان، إبستمولوجيا اللغة النحوية، ص 34.
- ¹¹ علي القاسمي، معجم مفردات علم المصطلح، التوصية 1087، اللسان العربي، العدد الثاني والعشرون، مكتب تنسيق التعريب، الرباط، 1984، ص 212.
- ¹² زكريا أرسلان، إبستمولوجيا اللغة النحوية، ص 38.
- ¹³ محمد غاليم، النظرية اللسانية و الدلالة العربية المقارنة، مبادئ وتحاليل جديدة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 2007، ص 15.
- ¹⁴ المرجع نفسه، ص 15-16.
- ¹⁵ عبد الرحمن طعمة، أحمد عبد المنعم، المقاربة العرفانية في تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها، دار كنوز المعرفة، المنتدى الأوروبي للوسطية، بلجيكا، 2020، ص 19.

¹⁶ المرجع نفسه، ص 19.

¹⁷ المرجع نفسه، ص 19.

¹⁸ المرجع نفسه، ص 23.

¹⁹ المرجع نفسه، ص 25.

²⁰ المرجع نفسه، ص 26.

²¹ المرجع نفسه، ص 28.

²² المرجع نفسه، ص 28.

²³ المرجع نفسه، ص 29.

²⁴ المرجع نفسه، ص 29.

قائمة المراجع:

- 1- عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، الطبعة الثانية، تونس، 1986.
- 2- زكريا أرسلان، إبستمولوجيا اللغة النحوية، بحث في مقاييس العلمية و مرجعيات التأسيس و التأصيل، دار كنوز المعرفة، المغرب، الطبعة الأولى، 2016.
- 3- طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الرباط، المغرب، الطبعة الثانية، 2007.
- 4- علي أبو المكارم، تقويم النحو العربي، دار الثقافة، بيروت، لبنان، دون تاريخ.
- 5- علي القاسمي، معجم مفردات علم المصطلح، التوصية 1087، اللسان العربي، العدد الثاني والعشرون، مكتب تنسيق التعريب، الرباط، 1984.
- 6- محمد غاليم، النظرية اللسانية و الدلالة العربية المقارنة، مبادئ وتحاليل جديدة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 2007.
- 7- عبد الرحمن طعمة، أحمد عبد المنعم، المقاربة العرفانية في تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها، دار كنوز المعرفة، المنتدى الأوروبي للوسطية، بلجيكا، 2020.

الهوامش:

- ¹ عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، الطبعة الثانية، تونس، 1986، ص 11.
- ² زكريا أرسلان، إبستمولوجيا اللغة النحوية، بحث في مقاييس العلمية و مرجعيات التأسيس و التأصيل، دار كنوز المعرفة، المغرب، الطبعة الأولى، 2016، ص 09.